كلمة فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة
رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

بمناسبة الافتتاح الرسمي لسنة
« الجزائر عاصمة الثقافة العربية »
(الجزائر 13 يناير 2007)

بسم الله الرحمان الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين

أصحاب الدولة والمعالي والسعادة،
حضرات السيدات والسادة رواد الفكر وحاملي مشعل الفن والإبداع.

تغمرني السعادة والابتهاج، والجزائر واسطة العقد في الجناح المغاربي لأمتنا العربية، وجوهرة من لألي المتوسط تتوج عاصمة للثقافة العربية لسنة 2007، وتحتضن ربوعها الرحبة، من الشمال إلى الجنوب، أعلام الثقافة وفرسانها من الموهوبين والمبدعين ممن تميزوا برهافة الحس والوجدان، وتبنوا القضايا الكبرى لأمتنا العربية، وكانوا وما زالوا ضميرها الأمين ولسانها المبين وسندها القوي المكين.

إني لأرحب بكم من صميم الفؤاد، وأنتم تستهلون، في هذا اليوم الموعود من شهر يناير، سنة الثقافة العربية التي يلتقي طيلتها الأشقاء من مختلف أقطار الوطن العربي من أقصاه إلى أدناه، للتعرف عن قرب على ما تزخر به الجزائر من مآثر وتراث وفنون متنوعة في وحدة، ومتعددة في تناغم وانسجام، وللتأكيد على ما يجمع بين شعوب أمتنا العربية والإسلامية من أواصر القربى التي دوّنها التاريخ المشترك، وحفظتها الحضارة ووحّدها اللّسان العربي المبين.

لعله من حسن الطالع أن يتوسط هذا اليوم، من يناير عددا من الأعياد، ومنها عيد الحرث والبذر والتفاؤل بالخصب، الذي تحتفي به منذ القدم مجتمعاتنا الفلاحية، وذلك بعد أن احتفينا بعيد الرحمة، عيد الأضحى المبارك، وأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وأعياد رأس السنة الميلادية 2007، واستقبال رأس السنة اللهجرية في الأول من محرّم 1428، وكأن العناية الإلهية ودورة الزمان، أرادت أن يكون في هذا الاقتران والتتابع ما يذكرنا جميعا بوحدة الإنسانية في المبدأ والصيرورة والمعاد.

إنه تزامن يدعونا من جديد للإخاء والتسامح بين الأديان والمذاهب والتواصل بين الحضارات، وهو ما نادت به الشرائع السماوية وأقرته القوانين التي وضعها العقل السليم.

إني أرى في هذا اللقاء بين أهل الفكر والفن والإبداع، على امتداد ساحتنا العربية الحبلى بالتحولات، حدثا على درجة كبيرة من الأهمية في هذه الحقبة الحرجة من تاريخ أمتنا العربية، وهي في حاجة إلى مراجعة وتقويم ماضيها القريب والبعيد، والبحث عن مخرج من وضعية التخلّف والاستضعاف والتبعية وما يتهددها من مخاطر كثيرة من الداخل والخارج وتدرك نخبنا المفكّرة والمبدعة أنّ وطننا العربي، على الرغم من ثرواته وموقعه الجيوسياسي الممتاز ونضالات شعوبه، لا يزال بعيدا عن مقدّمة الركب.

لن يكون ذلك الموقع وتلك الثروات مصدر قوة ومناعة إلا إذا تضافرت الإرادات وتكاتفت الجهود لتحقيق تنمية تبدأ بالإنسان وتعود ثمارها إليه فردا وجماعة، ولاشك في أنّه لا تنمية بدون ازدهار الثقافة وتوطين المعرفة واحتضان المواهب والعناية بالنبغاء من الشباب في المدارس والجامعات ليجدّد الخلف وينمّي ما قام به السلف ويكون الغد أكثر تقدّما ورقيا من الأمس.

إنّكم أيّها المثقفون، من مفكرين وأدباء وفنانين وحفظة تراثنا المادي والمعنوي، على امتداد الوطن العربي مهبط الأديان السماوية ومنبت الحضارة الإنسانية منذ أقدم العصور، إنكم بحق ثروة الأمة الباقية والمتجدّدة، وعينها البصيرة بواقع حال مجتمعاتنا وما وراء الواقع من نذر وبشائر قد لا يراها الإنسان العادي.

إن النخبة لا تستحق هذا الاسم، إلا إذا فهمت عصرها، وتصدّرت الصّفوف الأمامية التي تصنع المستقبل، وتمهد الطريق للتحولات الكبرى التي تنتظرها شعوبنا، للخلاص من أغلال التخلف وترسيخ ثقافة الديمقراطية التي تقوم على حقوق وواجبات المواطنة وحرية الفرد في التعبير والتفكير والإبداع، بلا حدود ولا قيود، سوى تلك التي يقرها المجتمع، وأخلاقياته المرعية.

إنّ دور ومكانة أهل الفكر والإبداع لا يقتصران على مناسبة أو مهرجان، ولو تواصل لمدة أسابيع وشهور، بل ينبغي أن يكون في كلّ أوان وفي كل مكان وزمان. فأنا على قناعة تامة وإيمان عميق بأهمية معيار الموهبة الخلاقة والكفاءة العالية والاستحقاق الذي يميّز هذه الفئة من مجتمعاتنا، فلم تحدث نهضة أو تقدّم، بدون أن يتصدّرها ويبشّر بها روّاد من المفكّرين والأدباء والفنانين الذين أدركوا متطلبات عصرهم وشخصوا أوضاعه شعرا ونثرا ومسرحا وغناء وأناشيد بالفصحى وبالعامية وبالنحت والرسم، وأعادوا إحياء وإثراء التراث بما فيه من تصوّف وعرفان.

قد يصيب الطليعة من تلك النخبة الضرّ، وقد يتجاهلهم قومهم إلى حين، وقد تغمرهم الطمأنينة والرضا إذ تحولت أفكارهم وإبداعاتهم، إلى قبس من نور يوقظ الهمم ويستنهض المجتمع ويحرر العزائم من اليأس والوهن.

إنّ وراء وأمام كل التحوّلات الكبرى، قادة من الفاتحين في ميادين العلم والفن والأدب، كما يشهد على ذلك تاريخ الحضارة الإنسانية في الشرق والغرب منذ أقدم العصور وإلى يوم الدين هذا.

من الواجب، وأنا أرحب بكم، في هذا اليوم المشهود، أن أؤكد لكم بأن عاصمة الجزائر الوفية لذاكرتها التاريخية ستبقى على الدوام مدينة لأولئك المفكرين والأدباء والفنانين الأحرار الذين وقفوا إلى جانب كفاح شعبنا العادل، وسخروا فنون الأدب والفكر الصادق، من روائع الشعر والقصة والرواية والمقالة والمسرحية إلى الصورة الفوتوغرافية والأفلام السينمائية وغيرها من أشكال الفن والقول الشعبي التي تمثل جزءا من ملحمة الثورة الجزائرية، ينبغي أن نرى فيها تراثا مشتركا لأمتنا العربية، ونموذجا يحتذي لوحدتها المعنوية وصفحات ناصعة في ذاكرتها الجماعية، فقد كانت الثورة الجزائرية بسنواتها السبع والنصف المجيدة، ملحمة العرب والمسلمين والشعلة التي وحّدت الأمة.

إن جزائر الأمس واليوم، لتذكر باعتزاز ذلك العطاء الرائع والغزير الذي ساهم فيه إلى جانب المبدعين العرب، العديد من أحرار العالم أنصار الحرية الذين واجهوا الكثير من التضييق والترهيب والوعيد، في بعض البلدان الغربية وفي فرنسا بالذات، ولكنهم

واصلوا جميعا النضال بمختلف الوسائل والأشكال، واختاروا عن قناعة الوقوف إلى جانب الحق والعدل والحرية.

إن هذا الجمع من أصحاب المواقف الحرة، والرسالة الإنسانية، سيبقون نجوما لامعة في ليل الظلم والقهر والعدوان. لقد كانوا أوفياء للمثل والمبادئ السامية، فاستحقوا مقاما ساميا في سجل الضمير الحي للإنسانية.

لعلي لا أغالي، إذا قلت بأن كتاب وأدباء ذلك الجيل، والعديد من الرعيل الذي جاء بعده، قد استلهموا أيضا من ملحمة الثورة الجزائرية وكفاح شعبنا الطويل والمرير. فقد أدركوا بحسهم المرهف وفكرهم الوقاد، أن الجزائر كانت على موعد مع التاريخ، وأنها تخوض ثورة شعبية ذات أبعاد حضارية وإنسانية لا شبهة فيهما، لا توجهها رياح من معسكر الشرق، ولا تستعملها قوى من معسكر الغرب في صراعات الحرب الباردة والتنافس من أجل الهيمنة والنفوذ.

لقد كان الهدف الأول لثورة الجزائر وغاية مسعاها هو تحرير الجزائر من الكولونيالية الباغية واستعادة الكرامة والحرية، لذلك كانت ثورة الجزائر القضية الأولى - ونتمنى ألا تكون الأخيرة - التي وحّدت المثقفين العرب على اختلاف مذاهبهم الفكرية وانتماءاتهم الإيديولوجية وجنسياتهم القطرية، لقد كان بين أولئك المثقفين ما يقترب من الإجماع على أن انتصار الثورة الجزائرية هو مكسب استراتيجي، ورصيد عظيم للأمة العربية، ولكل المقهورين في شتى أنحاء العالم من القارة الإفريقية إلى ربوع آسيا وأمريكا اللاتينية.

أصحاب الدولة والمعالي والسعادة،

حضرات السيّدات والسادة

إن الأمر واحد، سواء أتعلق بالأمم أم تعلق بالأفراد، فاللهث الجنوني وراء تلبية الحاجات المادية يكسب، حقا، النمو والنماء لكنه يؤدي، كذلك، إلى الوقوع في العزلة. والثقافة هي الترياق المتاح ضد العزلة، بصفتها فضاء للتواصل ولإقامة الأواصر

والصلات بين بني الإنسان، الأواصر والصلات الحبلى بشتى أنواع التضامن والجالبة للتقدم والرقي.

إن الثقافة ليست ظاهرة ثانوية، إنها تنبع من تملك المكوّن الاجتماعي للتراث المتعدد الأشكال لحضارة مشتركة بين جملة من الشعوب، فالخصوصية الثقافية لكل مجموعة إنما تكمن في فعل التملك هذا، الإرادي والانتقائي، إن الأمر يتعلق بمكسب يتطور على مر القرون، مكسب تتحكم فيه الظروف وتعتوره تحولات، بل وحتى فترات انقطاع. لقد قال مالك بن نبي: « ليست الثقافة علما بل هي جو يتحرك ضمنه الإنسان الذي يحمل حضارة في حناياه، إنها وسط يكون فيه كل تفصيل من التفاصيل مؤشرا ينم عن مجتمع يسعى إلى مصير واحد».

ومن ثمة، فإن الثقافة هي، في رأيه، « تلك التركيبة من العادات والملكات، والتقاليد، والأذواق، والأعراف، والسلوكات، والمشاعر، التي تعطي لحضارة ما وجهها وملامحها وتزودها كذلك بقطبيه العبقرية، والروح».

إنهما قطبان مولدان للأواصر والصلات، مقاومان لعوادي الزمن وليس للمسافات عليهما تأثير. إنها أواصر من صلب مزايا وأفضال الثقافة العربية التي تفضلتم بجعل الجزائر العاصمة قلبها النابض في مطلع عام 2007 هذا.

إن الثقافة، شفوية كانت أم حدسية أو شعبية، أو مكتوبة أو مكتسبة، لدى كل أمة من أممنا، قد ضعف جانبها بفعل قصور في القدرة على التكيف مع التغيرات، الشديدة غالبا، التي تعرضت لها مجتمعاتنا ومع محيط خارجي تعددت مظاهره.

إن ارتفاع عدد السكان في بلداننا، خلال بضعة عقود من الزمن، إلى ضعفي بل ثلاثة أضعاف ما كان عليه، قد أدى إلى تقهقر الثقافة الشعبية وتراجعها أمام الشعبوية، وأدى زوال دولة المن والسلوى إلى إفقار شرائح بأكملها من الساكنة، في حين أن اختفاء الأيديولوجية والثقافة الرسميتين اللتين تروج لهما الدولة الأمة جردها مؤقتا من المعالم التي بها تسترشد وتهتدي.

إن الفراغ الذي خلفه العجز الثقافي سرعان ما سدته رؤية دينية مختزلة وحاقدة، سرعان ما سخرت لخدمة استراتيجيات عنيفة غايتها الاستيلاء على السلطة، استراتيجيات تجلت، في الجزائر، بأقصى مظاهرها خلال «العشرية السوداء». إذ أصبح المثقفون الذين ينشطون الحياة الثقافية في البلاد الهدف المفضل لإرهاب عاث في الأرض فسادا، بلا وازع ولا ضمير.

والسخط المتولد عن تفاقم الخروقات التي طالت أبسط حقوق الفلسطينيين الإنسانية، وعن الاعتداءات الخارجية المتعددة المقترفة في الشرق الأوسط، زاد الذهنيات راديكالية في العالم العربي بما لا يخدم الازدهار الثقافي ولا يتواءم معه.

إننا، في سائر بلداننا، قد دفعنا ضريبة باهظة لهذا التطور المضاعف، الداخلي والخارجي، من حيث تدهور التجليات الوطنية للثقافة العربية. ونحن نقف الآن في مفترق الطرق: فإما أن نوفق في الرد ونعيد، ـ إن اقتضى الأمر، اكتشاف مضمون ثقافة عربية عادت إليها حيويتها وتشارك، بإنسانيتها وأنوارها في إقامة مجتمع واثق من نفسه وفي إيجاد عالم أكثر انسجاما، وإما سيحكم علينا تيهاننا الثقافي بأن نصبح لقمة سائغة وفريسة سهلة للثقافات المسيطرة التي تفرضها القوى المهيمنة.

إننا نملك الوسائل والإرادة لرفع التحدي: ولأجل هذا، ينبغي لنا أن نتساءل، بعيدا عن الصور التقزيمية والتنميطية، عما تمثله، في القرن الحادي والعشرين، ثقافات العالم العربي هذه النابعة من الفضاء الحضاري الذي هو شركة بيننا.

ما كان تساؤل كهذا ليجد إطارا أفضل من الجزائر لأعمال الفكر حوله، ذلك أن بلادنا تمثل نقطة التقاء حضاري كان يوصف، في ما مضى، بالعربي الأندلسي، وصار يوصف اليوم بالعربي الإسلامي بالمعنى الواسع، إنها بلاد تزخر بثقافة عربية وأمازيغية في الآن ذاته وبرصيد لغوي ثلاثي، ثري بلغات متجذرة في واقعنا الوطني التعددي وبلغة، حتى وإن كانت «لغة منفى» في حكم مالك حداد، هي بمثابة «غنيمة حرب» متنوعة من المستعمر

المهزوم، على حد قول كاتبنا الملهم. وإنني أقترح، فيما يتعلق بالبحث عن التساؤلات بشأن فحوى الثقافات التي توحدنا، أن ينصب تفكيرنا على ثنائيات ثلاث.

أبدأ، أول ما أبدأ، بذكر الثنائية المتمثلة في «الهوية والثقافات العربية» . إن الثقافة الوطنية، مثلما تعاش في كل بلد من بلداننا، هي، بالفعل، جزء لا يتجزأ من هويتنا. لكنها لا يمكن، مع ذلك، أن تكون بديلا لها، ذلك أنه، خلافا لمفهوم الثقافة، فإن مفهوم الهوية مرتبط بالانتماء لها. ذلك أنه، خلافا لمفهوم الثقافة، فإن مفهوم الهوية مرتبط بالانتماء الإقليمي أو الجيني. إن المفهوم هذا هو، أصلا، مفهوم يتجلى من خلال «نحن « و» هم». عكس ذلك، فإن الثقافة، مثلما تريدها قيمنا العريقة، تنبذ ما يسميه الأستاذ محمد أركون «إيديولوجيات الإقصاء المتبادل».

إن الخلط بين هويتنا الوطنية والثقافة العربية يعني، كذلك، إيجاد فضاء مُوات لتكاثر الصور النمطية التي تغذي كراهية الفضاءات الحضارية الأخرى. فلسرعان ما يدعى، في أصقاع أخرى، بالويل والثبور على العالم العربي برمته وعلى «عرب» ينظر إليهم على أنهم طرف في نزاع مع الغرب. إن ضروبا من التفكير المختزل ومن التعميمات المتسرعة يُدفع بها لتبرير الشكل الجيد الذي اتخذته معاداة السامية والمتمثل في كراهية الإسلام. إن إحلال الهوية محل الثقافة، بمناسبة وبغير مناسبة، قد غذى كراهية الأجنبي التي تستهدف جالياتنا في الخارج، إنه يرمي بهذه الجاليات في غيتو افتراضي يخفي العوامل المشتركة التي تجمعها بالسكان المحليين وقيمة وتنوع إسهام أعضاءها في مجتمع بلاد الإقامة، بصفتهم حرفيين أو محامين أو باحثين أو رياضيين أو عمالا متطوعين.

وخلاف للهوية، فإن الثقافة لا تصدر عن أمر، إنها، أولا وقبل كل شيء، حوار داخل المجتمع وحوار بين المجتمعات. إن مالها هو أن تتخطى الحدود الوطنية لتشمل سائر فضائها الحضاري وتتفتح على العالمية، من ثمة، يصبح من قبيل التعسف أن نعتد بالثقافة كوسيط لخاصية بعينها، ومن قبيل الزيغ أن نتذرع بها لإضفاء المشروعية على اعتبار العربية مرادفا للغيرية العقيمة بدل التنوع الخصب.

إن افتتاح هذا الملتقى يوم رأس السنة الأمازيغية المخلد لتربع الفرعون الأمازيغي شاشناق Shesnaq الأول على عرش مصر قبل 2957 سنة خلت هو، في الآن ذاته، رمز وتذكير بهذا التنوع بصفته عربونا يضمن حيوية الثقافة.

وهذا يسوقنا إلى التطرق إلى الثنائية الثانية ألا وهي « الثقافات العربية والعولمة»، لنوصي بتسيير أكثر انسجاما لأصالتنا، تسيير يتكيف، بالتساوق مع تكلفه بما يزخر به تراثنا العريق من ثراء، مع مقتضيات الحاضر ويزيد الثقافة حيوية وعنفوانا، مع السهر على ألا تكون مُمَجّدة للماضي فحسب، وإنما على أن تكون مولية وجهها شطر المستقبل ومتفتحة على العالمية.

إن القول بتفتح الثقافة في العالم العربي على العالمية لا يعني، مع ذلك، أن يلزمها بأن تتشبع بالثقافة الغربية، انطلاقا من منظور « نشر» التقدم الذي يتعين عليها الانصياع والخضوع له طوعا باسم الحداثة. إن ثقافتنا سيتهددها، حينذاك، خطر الغرق والذوبان. ولن تصبح اللغة العربية وغيرها من حوامل رموز ثقافتنا سوى أوعية حاملة لمفاهيم أجنبية لا صلة لها بواقعنا. ولن تصبح ثقافتنا، في نهاية المطاف، إلا الوعاء العربي لمنتوج أجنبي.

إن خطرا كهذا الذي سبق وأن حاق بالنهضة العربية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ازداد تفاقما اليوم بفعل مد العولمة المكتسح والعاتي.

إن محاولة وقاية ثقافات العالم العربي من المد هذا قد تم، بعد، وسمها بالتخلف وبرفض العقلانية التي أتاحت بروز عصر الأنوار في الغرب وحسب النظريات «النشرية» التي غالبا ما ينادي بها مستشرقون من ذوي النوايا الحسنة، فإن الثقافة العربية ستبقى، بذلك، حبيسة مدونة لا تتغير من المعايير ومن المواقف العاطفية التي لا تفرد للعقلانية مكانا وتجعل، من ثمة، ذهنياتنا غير قابلة للتكيف مع «الحضارة الحديثة».

إننا نرفض بقوة هذه النظريات التي تعمد إلى الخلط بين الحداثة والتغريب. ومع ذلك، لا ينبغي لنا أن نتوقع، متخوفين، في شرنقة أمجادنا الثقافية الماضية، بالخضوع والخنوع لدعاة التقليد العقيم.

بالعكس، إنه ينبغي لنا إعادة ابتكار الثقافة العربية بتيسير تفتح، ضمن مجتمعاتنا، موات للإبداع ولا يكون « بدعة « بمفهومها القديم المرادف للضلالة.

ومن هنا، أنتقل إلى الثنائية الثالثة المتمثلة في « الثقافة العربية والحرية ». إن فضاء حرية كل فنان، وكل مؤلف، والذي طالب به اعتبارا من القرن الثاني للميلاد أبوليوس ابن بلدة مداوروش الجزائرية، من المفروض ألا يحده إلا احترام حرية الغير، إن الشعر، بتفتقه في فضاء جرى تحريره، على هذا النحو، سيصبح، كما قال مولود معمري: «كلمة الشاعر المجنحة التي لا تخضع للقواعد المفروضة». بينما تنبجس قريحة الفنان وهي، حسب ألبير كامو Albert Camus، «العيش على التخوم وتلقّف ما يستعصى على الأفهام وإعطاء شكل لما لا شكل له».

وفي نهاية المطاف، فإن إعادة ابتكار الثقافة العربية التي يشارك فيها الشاعر الذي دعاه أدونيس إلى أن يكون «صانعا لعالم جديد»، تنبذ التفريق الوهمي بين «التقليد» و «التجديد».

إنها تدعو إلى تثمير التراث التقليدي لكل مناخ بالاعتماد على منهج علمي وليس بالتغني بالمآثر والأمجاد.

كما أنها تدعو كلامنا إلى اقتفاء خطى الأسلاف قبل أن يطمح إلى أن يصير، مثلهم، من «الأدباء» المنسجمين مع عقيدتهم حقا، لكن مع زمانهم كذلك.

إنها تقتضي، قبل ذلك، منظومة تربوية عالية الجودة وتتطلب، أخيرا، صياغة مناهج مبتكرة، قمينة بوضع حد لتدهور التراث الثقافي الكلاسيكي، ورسم المسار الأسلم للثقافة العربية المستقبلية صوب العصرنة ويمكن لذلك أن يكون، ولم لا، برعاية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو).

إن التفاعل بين ثقافات المشرق، الذي يشمل بلاد الفرس، والمغرب العربي، ومعه الأندلس، ساهم، منذ آلاف السنين، في إثراء فضائنا الحضاري.

لقد كانت الجزائر، ولا تزال، محركا للتفاعل بين المشرق والمغرب، فمنذ القرن الثاني للهجرة، كانت بلادنا الممر الذي تسلكه حتما الحركة الفكرية من العباسيين في الشرق نحو بني مروان في الأندلس، شمال غرب المتوسط، كما كانت الجزائر فيما بعد موئلا للمتصوف الأندلسي الكبير ابن عربي وهو في طريقه إلى المشرق، ولابن رشد الذي تفند عقلانيته فرية اللاعقلانية التي رميت بها الحضارة العربية ظلما وإفكا، ولابن خلدون الذي دوّن فيها مقدمته الشهيرة، إن تفتح الجزائر على الثقافات العربية، من شرق حوض المتوسط إلى غربه، مجسد في تراثنا الموسيقي الذي استوعب، على المنوال نفسه، الموسيقى الأندلسية، زاد الناجين من محاكم التفتيش، والموسيقى التي جاءت من بلاد الرافدين والتي يدل اسم الموصلية على أصلها دلالة واضحة.

إن الاحتلال الاستعماري وضع حدا لهذا التفتح وسعى إلى إبادة ثقافتنا الوطنية، طبقا لمسار اضطهادي وصفه فرانز فانون Frantz Fanon وصفا بليغا في مؤلفه «المعذبون في الأرض». وكان من آثار ذلكم الاضطهاد، ليس إخماد ثقافتنا بل، خلاف ذلك، إذكاء الوعي الوطني، فمن مؤلفات الأمير عبد القادر في منفاه، إلى الآثار الأدبية والدينية لابن باديس في قسنطينة، برزت نهضة حقيقية ثقافية عربية إسلامية تجاوب معها وردد صداها أدب ناضل من أجل الحرية من خلال أعمال كل من كاتب ياسين ومحمد الديب على وجه الخصوص.

ومع الاستقلال، استعادت الجزائر مكانتها في الرواية العربية بفضل إنتاج كتاب مقتدرين من أمثال عبد الحميد بن هدوقة، والطاهر وطار، وأحلام مستغانمي، على سبيل المثال لا الحصر، الذين عالجوا مشاكل مجتمعنا ببراعة وحصافة. وكان تنظيم المهرجان الأول للرواية، في الجزائر العاصمة سنة 2002، سندا لهذا التطور الواعد. ومثل هذه المبادرة جديرة بأن تتجدد دوريا بقدر ما يجدر تشجيع عقد ندوات متلفزة للتعريف بمنتوجنا الأدبي.

إن الجزائر، وبعد بعض المماطلات، عمدت إلى تشجيع التعبير الأدبي الجزائري بالعربية أولا، دون إقصاء وسائل التعبير الأخرى، ذلك أن المهم في المجال الفني، إنما هو جمال المؤلف ورونقه وليس اللغة التي تنقله إلى المتلقين وكفى. لذلك، سعدنا لإحراز

آسيا جبار على العضوية في الأكاديمية الفرنسية، هذه الكاتبة التي نقدر عاليا إسهامها في إضفاء العالمية على ثقافتنا، بواسطة لغة فولتير Voltaire لكن بروح جزائرية صرفة.

إنه يبقى علينا فعل الكثير على المستوى الوطني لتشجيع تفتق مواهب جديدة في الفنون التشكيلية وفي الأدب ولكي يجد كل المبدعين في الجزائر المناخ التكنولوجي والإداري والمالي المواتي لنشر أعمالهم في بلدهم. إننا مصممون على تدارك تأخرنا في هذا المجال.

إن ترقية ثقافة الكتاب، بل الشغف بالكتاب، في الجزائر وتكثيف إشعاع العالم العربي لا يمكن أن يستغنيا عن الوساطة ما بين الثقافات التي يضمنها تعزيز قدرات الترجمة، فبفضل الترجمة، تسلم العالم العربي قديما، من بابل إلى غرناطة مرورا بقسنطينة وبجاية وتلمسان، قمة الثقافة، ومن خلال مسعى كهذا يمكننا أن نرتقي، بسرعة، إلى مستوى مماثل من الامتياز. من ثمة، أحيي قرار الجامعة العربية القاضي بإنشاء مركز عربي للترجمة واختيار الجزائر العاصمة مقرا له.

وعلى مستوى المنطقة العربية وحتى على المستوى الوطني، يمكن إحداث جوائز قيمة، بمشاركة القطاع الخاص، لتكريم المبدعين الفنيين العرب الذين غالبا ما يتوقف الاعتراف باستحقاقهم على لجان تحكيم من خارج حدودنا.

أصحاب الدولة والمعالي والسعادة،

حضرات السيدات والسادة

إننا نأمل أن تكون سنة «الجزائر عاصمة الثقافة العربية» في مستوى التوقعات، ومن بين ما نأمل الاهتمام بالنشر الأفقي للثقافة، فأمية الحرف مرض مزمن، والأمية الثقافية داء عضال، فإذا تباطأ التكامل والتنسيق في بعض الميادين السياسية والاقتصادية والتجارية بين الشعوب، فإن التبادل الثقافي، وخاصة منه المنتوج الأكاديمي والأدبي والفني ذو المستوى الرفيع ينبغي ألا يحتاج إلى تأشيرة، وإننا لنتطلع إلى اليوم الذي يتزايد فيه الإنتاج المشترك المقروء والمسموع والمرئي، وأن يصبح متداولا على امتداد الساحة

العربية وأن ينتقل الباحثون المبدعون داخل الوطن العربي وفي المهجر بحرية ويشكلون فرق بحث مشتركة وبتمويل مشترك في إطار الجامعة العربية ومنظماتها للتربية والثقافة والعلوم، وبمبادرات أخرى من منظمة المؤتمر الإسلامي وهيئتها المتخصصة أيضا في نفس المجال، ولها برنامج العواصم الثقافية لأكثر من خمسين بلدا ولليونسكو جهد مشكور في كل الميادين التي أشرنا إليها، فهي التي أقرت العقد العالمي للتنمية الثقافية وبرنامج العواصم الثقافية الذي انطلق من أوروبا ويتواصل في مختلف أقطارنا العربية، وسوف تكون الجزائر، بإذن الله، على موعد أيضا مع الثقافة الإفريقية في نوفمبر من هذه السنة 2007.

إن مثل هذه الأولويات العاجلة لا تكفي فيها التوصيات ولو كانت بليغة، بل ينبغي أن تتحول إلى خطة عمل محكمة وعلى المدى الطويل، ومن المهم، على وجه الخصوص، العناية بثقافة الطفل والشاب الذي لا يجد بين البيت والمدرسة الكثير من المنتوج الثقافي و الترفيهي، الذي يصله بواقع بلاده وعيون تراثه، وما يساعده على استلام المشعل في القرن الواحد والعشرين وهو وثيق الصلة بحضارته وجذوره وليس غريبا في نفس الوقت عما يجري في عصر الحاسوبية والمعلوماتية والجينوم وعلوم الفضاء.

ليس من باب التفاؤل العاطفي أن ندعو لاستبدال اليأس بالأمل، والشك بالثقة في النفس، وأن نتصدى للعجز باستنهاض الهمم، وتكاتف الإرادات، وتفعيل القدرات. إننا لا نرى عدوا لأمتنا أخطر من التخلف، ولا نرى سبيلا للتخلص من أثقاله ومضاعفاته، سوى طريق الإصلاح الشامل الذي لا يخاف في حق الأمة ومستقبلها لومة لائم.

وفقكم الله لخدمة الفكر والثقافة في الوطن العربي وفي تبليغ الرسالة الحضارية لأمتنا إلى البشرية جمعاء.